كتب

يناقش كتاب الباحث الفلسطيني، الصادر عن «المركز العربي»، وضعيّة اللغة العربية لا من وجهة نظر تلتزم بالدرس الألسني الغربي، بل من خلال التفاعل الاجتماعي والتاريخي مع علامات أخرى يفرضها الراهن، تُضيف إلى كونيّة اللسانيات عبر المساءلة المنهجية

ياسر سليمان معالي اكتناهٌ لوظيفة اللغة الترميزية

العربية في سياق الاجتماع والسياسة

أنس الأسعد

هل يُمكن أن نقرأ كتاباً في اللغة وعلومها انطلاقاً من مقدّمة راهنة ومأخوذة من صلب الواقع السياسي والاجتماعي الذي نعيشه؟ ربّما نمثّل لهذا بتجربتنا مع كلمات مثل «شهيد» و«فلسطين» و«غزّة» أو منشورات وكلمات تضامنية تم تقييدها على منصّات التواصل الاجتماعي. لكن لنأخذ مثالاً آخر كحادثة كمين العلَم المُفخَّخ التي ضجَّت بها وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي مُؤخّراً؛ مستوطن ينزل من سيّارته ليقطع حقلاً في أرض فلسطينية، بعد أن استفزّه وجودُ علَم فلسطين فيه، وبكامل قوّته يركل العلَم فينفجر به. هذه الواقعة في عناصرها المباشرة غير لُغوية، ولكنّها مُمهِّدٌ ممتاز لقراءة كتاب الباحث الفلسطيني ياسر سليمان معالي بعنوان «اللغة العربية في ساحات الوغى: دراسة في الأيديولوجيا والقلق والإرهاب»، الصادر عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات». الكتاب منذ غلافه تتصدّره صورة للافتة صغيرة مكتوب عليها «باب العمود» بالعربية والإنكليزية والعِبرية، كما يضعنا عنوانه في قلب الموضوع مباشرة. الغلاف والعنوان عتبتان تأسيسيّتان لتكون قراءةُ الكتاب قراءةً في الراهن، في الإبادة وفي مقاومتها، رغم أنه صدر في صيف العام الماضي وقبل بدء العُدوان. ينطلق الباحث من هَمٍّ عامّ وهو تفسير الدور الترميزي للُّغة، على عكس انشغال الدَّرْس الألسني الحديث واقتصاره على الجوانب التواصلية منها. فالاهتمام بالدور الترميزي يعرض لنا «مكانة الجماعة اللغوية مقابل غيرها من الجماعات». على الرغم من ذلك، فـ«إنه (الدور الترميزي) لا يطفو على السطح... بل يجري تداوله روتينيّاً كما يتداول الناس العملة الورقيّة... أو كما يسير المواطن تحت أعلام الوطن وهي تُرفرف فوق رأسه من دون الانتباه إليها أو إلى معانيها في الحياة العادية». وهُنا يُمكن لنا أن نُضيف أنه في لحظات المقاومة والمواجهة الكُبرى تظهر قيمة اللغة الرمزية، حيث تُصبح مثار انتباه، وتتجاوز كينونتها لتصير سلاحاً مُتوجَّهاً ضدّ الاستعمار ومستوطنيه.

ينقسم الكتاب إلى أربعة فصول: «اللغة العربية من منظور اجتماعي: دراسة في الرمز»، و«اللغة العربية والأيديولوجيا»، و«اللغة العربية والقلق اللغوي»، و«اللغة العربية والإرهاب»، وهي بعمومها تعتني برمزية اللُّغة من منظور سيميائي، تتحوّل معه الضادّ إلى إشارة لا يُكتفى بدراستها داخل نطاقها البنيوي، بل ننتقل إلى مجال آخر أرحب بَعد- لغوي وتاريخي. اللغة هُنا جزءٌ «مُتشعبِك» (منحوتة يستخدمها الكاتب وتعني مُتشعَّب ومُتشابك) بمصفوفة أكبر تشمل الشعر والنثر والصورة والكاريكاتير والرسالة و«التي شيرتات» واللّافتات والشعارات البصرية والأعلام والهتافات، وسوى ذلك ممّا يستدعي في وظيفته السياسية والاجتماعية إذكاءَ الدور الترميزي للّغة في أوقات الصراع وتعدُّد جبهاته، ومن هنا جاءت استعارة «ساحات الوغى». وضمن هذا السياق، يؤكّد الباحث «أنّ الدرس اللغوي العربي يُمكن أن يخطّ لنفسه مسارات خاصة به تُثري فهمنا للعربية، بخصوصيتها الثقافية، في الوقت نفسه الذي يستطيع فيه أن يُضيف إلى كونيّة اللسانيات المُبتغاة من خلال المساءلة المنهجية والمعرفية المنضبطة». ويذهب صاحب «حروب الكلمات: اللغة العربية والصراع في الشرق الأوسط» (صدر بالإنكليزية، 2004)، إلى أنّ التجلّيات اللغوية لاستعمار فلسطين بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث استدعت الحركة الصهيونية إحياء العِبرية القديمة خدمةً لمشروعها الاستيطاني «إخراجها من عالَم اللاهوت إلى الناسوت»، في الوقت الذي كانت فيه العربية تعيش حالة «آمنة»، وهذا ما انقلب بعد نكبة 1948، حتى وصل الحال مع قانون الجنسية الذي أُقرّ عام 2018 (للقانون صفة دستورية فـ«إسرائيل» لا تملك دستوراً بالمعنى القانوني)، وقد نصّت المادة الرابعة من هذا القانون على أنّ العبرية هي لغة الدولة الرسمية، وقد حاول المدافعون عن هذا القانون تبريره بادّعاء أنّ حاجة الأقلّية العربية إلى لُغتها خارج الوسط العربي أقلّ بكثير ممّا كانت عليه في العقود الأولى لإنشاء الكيان الاستعماري. كذلك يتنبّه الكتاب إلى مفهوم الأيديولوجيا اللغوية (الفصل الثاني)، ويُثبته في العنوان، وينظر إليه من خلال تعارُضاته مع نتائج الدرس الألسني الحديث، كونها (الأيديولوجيا اللغوية) تحدّ من فاعليّة تلك النتائج العلمية، وبالتالي لم تحظَ باهتمام كبير غربيّاً (وكذلك عربياً نتيجة طغيان التبعيّة). بل إنّ ياسر سليمان معالي يتبنّى النظرة البودريوية (نسبةً إلى عالِم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو) التي ترى أن قوّة الترميز ليست مُركّباً بنيوياً بل نتاجُ إنساني سياقي يتشكّل بفعل التاريخ وعلم الاجتماع. وهذا يقود إلى مواجهة أُخرى للأيديولوجيا اللغوية، وهي مُوجَّهة هذه المرّة إلى الموقف من العامّيات التي يرضعها الأطفال مع حليب أمّهاتهم عكس الفصحى التي تُكتسب في المدارس. لكنّ الأيديولوجيا اللغوية العربية تنظر إلى العامّيات بوصفها فساداً وتحريفاً، فضلاً عن أنها تعتقد بوجود «ازدواجية لغوية» (Diglossia). أمّا مفهوم القلق اللغوي فيتناوله الباحث في الفصل الثالث، وفي هذا السياق تبرز عدّة أمثلة منها الرمزي ومنها الأداتي، لكن ربّما يكون أبرزُها تائيّة حافظ إبراهيم الشهيرة، والتي تحوّلت إلى علامة فارقة في بابها: «رجعتُ لنفسي فاتّهمتُ حصاتي/ وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي/ أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن/ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي؟». ورغم أنّ الباحث يُفرد تحليلاً واسعاً لهذه القصيدة، ويربطها بخلفيّاتها التي شكّلتها في حاضنة الأيديولوجيا اللغوية الفصيحة، نجده أيضاً يشفع أمثلته بدرس مُقارن وبأسئلة من قبيل: ماذا عن مكانة الإسبانية في المجتمع الأميركي المعاصر؟ (وظهور ما يُعرَف بـSpanglish)، وماذا عن قلق الفرنسية من الإنكليزية، ألا يُعدّ هذا القلق جزءاً من ظاهرة عالمية؟

يُموضع ياسر سليمان معالي القلق اللغوي العربي في مكانة أعلى من نظيره الموجود في الإنكليزية، أو في الفرنسية، التي تُراوح بين المنزلتين، فالقلق اللغوي هو قلَق مجتمع قبل أن يكون قلَق لُغة. كما لا يفصله عن القلق الناجم من مزاحمة اللغات الأجنبية للوطنية، هذه الحالة أيضاً فيها ما فيها من الكرب والاضطراب الناجم عن موضوع يمسّ الهوية مباشرة، ويُمثّل بمنع زعماء الحركة الصهيونية الاقتراضَ من العربية مطلع القرن العشرين، رغم أن بعضهم دعا إلى ذلك بحُكم أنّ الضادّ لغة ساميّة وحفظت تاريخياً مفردات عِبرية. إلّا أن ما يهمّنا، كما ينبّه الباحث، أنّ المبالغة في تقييمات القلق اللغوي العربي لا يبعد عن كونه تكريساً لمنطق الضعف والتبعيّة، فها نحن اليوم بعد قرابة مئة وخمسين سنة من «النعوة» التي أطلقها حافظ إبراهيم، نقف أمام لغتنا لنكتنه ما فيها ونتقاسم همومها. في الفصل الرابع يجول الكتاب بمادّته في المطارات ووسائل النقل والجامعات والمَرافق العامّة في الغرب، مُستخلِصاً النظرة إلى اللغة العربية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، حين تحوّلت الضادّ، وبفعل تحشيد إعلامي غربي (كالذي يُغطّي على الإبادة الصهيونية اليوم، أو مؤسِّس له) إلى «لغة خوف»، وبات يتمّ التعامل معها على المستوى القومي الأميركي وفقاً لـ«خطّة أَمنِيّة». لكن قبل ذلك الحدث لم تكُن في نظَر الناشرين والمشتغلين سوى أنّها لغة إشكالية، في هذا السياق يُمثّل لعرض إدوارد سعيد على أحد الناشرين ترجمة نجيب محفوظ عام 1980 فما كان من الناشر إلّا أن امتنع قائلاً: (Arabic was a Controversial language). يُركّز الفصل الرابع والأخير من الكتاب على العُشْرية الأولى من الألفيّة الثالثة، حين تلا الحادي عشر من سبتمبر غزوُ العراق والصدام المباشر للآلة العسكرية الإمبريالية بالمنطقة العربية، وبدأت تظهر صُور التعذيب في سجن «أبو غريب»، وبات كتاب «العقل العربي» للأنثربولوجي الصهيوني رفائيل باتاي بمُخرجاته وتوصياته العنصرية هو المَرجع في التعامل مع اللغة العربية في وسائل الإعلام حينها.

سيميائية الاحتجاج

يُمكن لنا أن نقرأ مشهد الجامعات الأميركية المحتجّة اليوم، انطلاقاً من «النظرة الأمنيّة» إلى اللغة العربية، التي وصّفها ياسر سليمان معالي في كتابه. فالتعامل الأمني ما زال قائماً من قبل المؤسسة، لكن الحشد الطلّابي المُناصر للقضية الفلسطينية غير مسبوق. مشهد سيميائي تختلط فيه الشعارات بالصورة واللغة، وتنطبق عليه الأدوات التي استخدمها الباحث في استقراء الدور الترميزي للضادّ.

تظهر قيمة اللغة الترميزية في لحظة المقاومة الكبرى

دراسة تجمع بين أدوات التحليل الاجتماعي والفهم التاريخي

ياسر سليمان معالي

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

نظرة أولى

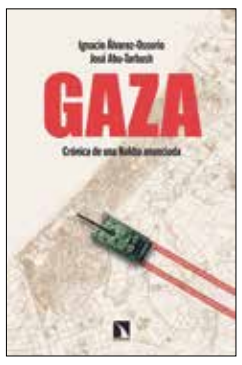

لا يعرض كتاب **غزّة، تاريخ نكبة مُعلنة** الصادر عن دار «كاتاراتا»، للباحثَين الإسبانيَّين إغناسيو ألباريث ألبارينيو وخوسيه أبو طربوش، تاريخ القضيّة الفلسطينية منذ نشأة الحركة الصهيونية فحسب، بل هو عمَلٌ يحلّل السياقَ التاريخي اللازم لفهم النضال الفلسطيني، من خلال الإضاءة على الإبادة الجماعية التي ترتكبها «إسرائيل» منذ السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023، وما يرافق هذه الإبادة من مُمارسات لاقانونية وضدّ حقوق الإنسان، سواء من الجانب الإسرائيلي، أو من قبل الغرب الذي تواطأ في رعايتها وتسليحها والسماح بها.

الفلسفة السياسية النسوية: تاريخٌ من العدالة المُراوغة، عنوان الكتاب الذي صدر للباحثة المصرية إكرام طلعت البدوي عن «منشورات بيت الحكمة». يقدّم الكتاب قراءة جديدة لمفهوم العدالة وقضية المساواة والاختلاف، من خلال استعراض المدوّنة الفكرية النسوية منذ القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وصولاً إلى النصف الثاني من القرن العشرين، على مستويّات عدّة: المساواة الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، في بقاع مختلفة من أنحاء العالم، ضمن حركة تسعى إلى إعادة تنظيم العالم وفقاً لنظرة مساواتية رافضة لكلّ تمييز على أساس الجنس.

عن منشورات «ساكوهينشا» في طوكيو، صدر للقيادية السابقة في «الجيش الأحمر الياباني» فوساكو شيغينوبو (1945)، كتاب **تاريخ نضالات التحرّر الفلسطيني** 1916 - 2024، ويقع في 466 صفحة، في حين حمل الغلاف صورة فارس عودة (1985 - 2000)، الفتى الذي قتله الاحتلال عند «معبر المنطار»، شرق غزّة، إبّان الانتفاضة الثانية. التحقت المؤلّفة في فترة مُبكّرة من حياتها بالعمل العسكري لصالح القضيّة الفلسطينية، حيث ساهمت في تأسيس «الجيش الأحمر الياباني» في لبنان، بعد لقاءات مع قياديّين في الثورة الفلسطينية، من بينهم الروائي الشهيد غسان كنفاني.

صدر عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» كتاب بعنوان **تجربة الانتقال الديمقراطي في السودان (2019 - 2021): مشكلات الراهن وتحدّيات المستقبل**، ويضمّ مجموعة دراسات تناقش قضايا الانتقال الديمقراطي في السودان وتُحلِّلُها في الفترة التي أعقبت الإطاحة بالرئيس عمر حسن البشير في 11 نيسان/ إبريل 2019، بفعل ثورة شعبية عكست نمطاً سودانياً مستلهماً من ثورتَي تشرين الأول/ أكتوبر 1964 ضدّ نظام الحُكم العسكري الأول، ونيسان/ إبريل 1985 ضدّ نظام الحُكم العسكري الثاني. حَرّر الكتاب وقدّم له الباحث أحمد إبراهيم أبو الشوك.

بتوقيع المترجم التونسي عبد الجليل العربي، صدرت عن «دار الكتاب التونسي» الطبعة العربية من المجموعة القصصية **على منوال سارتر وسيمون دي بوفوار**، للكاتب والصحافي الأنغولي جواو ميلو (1955). يُعدّ ميلو من أبرز الأسماء في الأدب المكتوب بالبرتغالية في الوقت الراهن، حيث تعدّدت الأجناس الأدبية التي تناولها من الشعر والرواية والقصّة القصيرة إلى المقالة والنقد الأدبي، وصدر له 23 كتاباً تناول فيها مواضيع وقضايا سياسية واجتماعية تُصوِّر مأزق التحوُّلات في بلده خلال حقبة ما بعد الاستعمار وانعكاساتها على الثقافة.

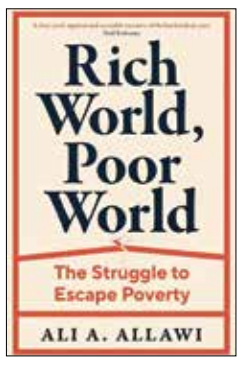

صدر عن «منشورات جامعة ييل» كتاب **عالمٌ غني، عالمٌ فقير.. النضال من أجل الهروب من الفقر** للباحث علي أعلاوي. يتتبّع الكتاب تطوّر النظام الاقتصادي العالمي منذ أواخر العصر الإمبراطوري وحتى يومنا هذا، ومن خلال تسليط الضوء على التناقضات المستمرّة، يوضّح المؤلّف كيف تمّت إعاقة عملية التنمية عند كل منعطف، سواء بسبب القيادات الضعيفة أو الفساد المستشري وإضاعة الفرص، مُشيراً إلى أنّ السياسات النيوليبرالية الحالية قادت خلال العقدين الأخيرين إلى فجوة عُظمى من عدم المساواة بين الجنوب العالمي والغرب، تسبّبت باضطرابات اجتماعية وسياسية.

يتناول كتاب **التاريخ الثقافي للألم** لمؤلّفه الإسباني خابيير موسكوسو، الصادر عن دار «نينوى»، بترجمة حسني مليطات، الأشكال المُتتابعة (غير التقدّمية) لتجسيد تجربة الأذى، إضافة إلى الأساليب الفنية والقانونية والعِلمية التي أتاحت لنا، منذ عصر النهضة وحتى أيامنا هذه، الفهم الثقافي للمعاناة الإنسانية، بما فيها معنى الألم. إنّ التمثيل، والتعاطف، والمحاكاة، والتماسك، والثقة، والسردية، هي بعض الموارد البلاغية والحجاجية التي استخدمناها وما زلنا نستخدمها؛ حتى نشعر بألمنا، ونُعبّر عنه، ونمنحه بُعداً دلالياً، وقيمةً جمعيةً.

عن «الشبكة العربية للأبحاث والنشر»، صدرت النسخة العربية من كتاب **اللّاهوت السياسي؛ أربعة فصول جديدة حول مفهوم السيادة** لأستاذ القانون والباحث الأميركي بول دبليو كان، بترجمة محمود هدهود. يعود المؤلّف إلى تنظيرات الفيلسوف الألماني كارل شميت في عشرينيات القرن الماضي حول اللّاهوت السياسي، ثمّ يُضيء تعريفات السيادة وعلاقتها بالإنصاف، وكيف تتحقّق عبر القرارات السياسية والأحكام القانونية ومفهوم السيادة الشعبية، ليختتم كتابه بنقاش فلسفة الدولة عند الثورة المضادّة، وجدلية السياسة والحرية، وغياب السياسي في النظرية الليبرالية.